ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Tahseen Hassan Jassim

Imam Al-Kadhim University College of Islamic Sciences

Email: tahsin.hasan@alkadhum-col.edu.iq

Keywords:

Writing and women, feminist literature, the history of literature, Rashida Benmasoud

Article info

Article history:

Received 15.Febr.2023

Accepted 17.Apr.2023

Published 29.May.2023

The problematic of the history of feminist literature in the book "Women and Writing" by "Rashida Benmasoud", a critical study in "Beginnings".

ABSTRACT

The Moroccan researcher "Rachida Benmasoud" has a great passion in exploring the nature of the literary production of Arab women, and the specificity of feminist writing. Questioning the heritage is one of her first procedures, as well as investigating the present from time in the Renaissance era to today, about women's contributions and their ability to crystallize the eloquence of difference in the vision of the world. Overlapping topics, and monitoring the foundations of variation and difference, in analyzing texts after selecting them. The research deals with the first section of the book titled "Beginnings", as the researcher presents the presence of women's contributions, and the biases of culture at the time, from the pre-Islamic era to the Renaissance, and perhaps more than one justification is explained by the research in choosing this part of the book; To monitor women's awareness in reading heritage, and their feminine critical sensitivity in monitoring the disguised hegemony in news formats that deal with women's contributions. The book is considered a source of feminist studies from a researcher who dedicated all her scientific output to women's issues, drawing on a number of knowledge from her studies at the Sorbonne, and from practical practice in political and legislative affairs when she was a member of the Moroccan Parliament (2002-2007) and as a founding member of the Center for Studies and Research on Women (Faculty of Arts - Dahr Al-Mahraz Fez) and a member of the central office of the Union of Moroccan Writers, and a member of the National Bureau of the Moroccan Organization for Human Rights, and president of the Women's Creativity Association..

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol51.Iss2.3616

إشكالية تاريخ الأدب النسوي في كتاب "المرأة والكتابة" لـ "رشيدة بنمسعود"

دراسة نقدية في "البدايات".

د. تحسين حسن جاسم

كلية الإمام الكاظم "ع" للعلوم الإسلامية الجامعة

الملخص:

يتملّك الباحثةَ المغربية "رشيدة بنمسعود" شغفٌ عظيم في التنقيب عن طبيعة النتاج الأدبي للمرأة العربية، وخصوصية الكتابة النسوية، مساءلة التراث من أولى إجراءاتها، كما تستقصي الحاضر من الزمن في عصر النهضة إلى اليوم، حول اسهامات المرأة وقدرتها على بلورة بلاغة الاختلاف في رؤية العالم، مهمة تتبناها الباحثة في مادة تتسم بتعدد الحقول بين ما هو (تأريخي ولغوي وأدبي) لتستعين بأدوات المناهج النقدية التي تسعفها في التعامل مع تداخل الموضوعات، ورصد أسس التباين والاختلاف، في تحليل النصوص بعد اختيارها، يتناول البحث القسم الأول من الكتاب الذي حمل عنوان "البدايات" إذ تعرض الباحثة وجود اسهامات المرأة، وتحيزات الثقافة آنذاك، من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر النهضة، ولعل أكثر من مسوغ يوضحه البحث في اختيار هذا الجزء من الكتاب؛ لرصد وعي المرأة في قراءة التراث، وحساسيتها النقدية الأنثوية في رصد الهيمنة المتخفية في أنساق الأخبار التي تعنى بإسهامات المرأة. يُعد الكتاب مصدراً من مصادر الدراسات النسوية من باحثة نذرت كل نتاجها العلمي إلى قضايا المرأة، مستعينة بعُدّة معرفية من دراستها في السوربون، ومن ممارسة عملية في الشأن السياسي والتشريعي حين كانت عضوا في مجلس النواب المغربي (٢٠٠٢ – ٢٠٠٧) وبوصفها عضواً مؤسساً لمركز الدراسات والأبحاث حول المرأة (كلية الآداب – ظهر المهراز فاس) وعضواً في المكتب المركزي لإتحاد كتاب المغرب، وعضواً في المكتب الوطني للمنظمة المغربية لحقوق الإنسان، ورئيسة جمعية الإبداع النسائي.

الكلمات المفتاحية:الكتابة والمرأة، الأدب النسوي، تاريخ الأدب، رشيدة بنمسعود.

الكتابة والموقع الثقافي:

قد تزعج بعض التوجهات النسوية التقسيم الثنائي للكتابة على أساس "النوع" على الرغم من الإقرار الضمني في الكتاب موضوع البحث؛ ذلك لما يحمله العنوان الثانوي من دلالة الخصوصية والاختلاف، كما في الصياغة الكلية للعنوان: "المرأة والكتابة؛ سؤال الخصوصية/ بلاغة الإختلاف" على فهم أن مصدر السؤال هو الوعي النقدي، وأن مصدر الإختلاف هو وعي الإبداع الأدبي، ولم يرد التركيبان معطوفين، مما يوحي بعلاقة تربطهما من نوع ما، وكما فهم من تخصيص الكتابة بالأدبية، وهذه إضافة غير واضحة في العنوان، لأن الكتابة تعني – كما سيأتي وكما أغفلت الباحثة إيضاحه – "كمؤسسة اجتماعية تندرج تحت مظلتها مختلف أنواع الكتابة، لكل منها علاماتها وشفراتها، ومن هذا المنظور اندرج النص الأدبي تحت هذه المظلة الاجتماعية" (البازغي، ٢٠٠٢، صفحة ٢٦٠) فهل كتابة المرأة تختلف عن كتابة الرجل؟ وبصيغة أخرى، فهل يوجد أدب نسوي في مقابل الأدب الذكوري؟

ترد الباحثة بشيء من التفصيل والدبلوماسية على الناقدات والمبدعات اللاتي يرفضن هذا التصنيف بوصفه تصنيفاً ذكورياً "من أجل الإبقاء على تلك الحواجز الحريمية الموجودة في عالمنا العربي، وترسيخها وتدعيمها حتى في مجال الإبداع" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٨١) فالنتاج الأدبي ينبغي أن يحتفظ بقيمته فيما يقدمه من دون النظر إلى نوع القلم للرجل كان أم للمرأة، ليكون للباحثة رأي في تبرير رفض المبدعات لمفهوم "الأدب النسائي" على حد تعبيرها "وكان الأولى

أن يكون المصطلح "الأدب النسوي" لأنه نابع من الدلالات السلبية المشحونة "بالمفهوم الحريمي الاحتقاري، وهذا ما يدفع المبدعات الى النفور منه على حساب هويتهن، فيسقطن بسبب ذلك في استيلاب الفهم الذكوري" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٨٢) وتحيل الباحثة سبب رفض تأكيد "الكتابة النسوية" إلى شرطين وإن كانت تعرضهما لتؤسس رؤية نقدية في مجمل تضاعيف الدراسة: منها الخشية من تهمة الدونية في مزاحمة موقع الرجل من الأدب، (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٨٢) وهو توجه يعود إلى الموجة النسوية التي آمنت بعدم تأييد مبدأ المساواة الذي يبقى الرجل فيها انموذجاً وموقعاً ينبغي الوصول له، والسبب الثاني الذي دفع البحث أن يعيد النظر بالرؤية النقدية للباحثة، ويعزز تحليلها النصي، ويكتشف التحيزات الذكورية الخفية فيما تنتجه المرأة، على أنه ضرب من التحرر من الهيمنة الذكورية، وهذا الشرط يتعلق بغياب الوعي النقدي الذي لم يتصور داخلياً بنية "الأدب" الذي تكتبه الأنثى، والذي يجب أن يفضي إلى تحليل خصائصه المميزة، وتفكيك ثيماته المركزية، وتتساءل الباحثة في دورها عن عدم تعامل النقد على الأقل بالطريقة نفسها التي "نتعامل بهما عند حديثنا عن كل أدب مهمش له خصوصيته. إننا اليوم نسلم بوجود أدب للأقليات الثقافية، ونقول بالرواية السوداء في أمريكا وأدب الشطار، فلماذا لا نقول بالأدب النسائي؟." (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٨٢) وهنا يُلمح الإقرار بهامشية الأدب النسوي، وبقلته، والأهم أن التعامل معه لم يكن على مستوٍ كبير، يعطيه طابعه المميز، ويعزز هويته المختلفة، ويثمن قيمته الضرورية التي تضيف رؤية جديدة للعالم، وهذه مهمة كبيرة ينهض بها النقد، ومن هنا يرصد البحث تساؤلا مركزيّاً حول موقع الذات الناقدة، مثلما تناولت الباحثة في الدراسة موقع المرأة من الإبداع الأدبي، وستكون المؤلفة "رشيدة بنمسعود" بوصفها "انثى" ناشطة في مجال حقوق المرأة، وناقدة مختصة في نقد الأدب، ينبغي أن تتحسس بوعي أكثر دقة من أي ناقد آخر من الذكور، فذلك التموقع الذي ينبغي أن يترك أثره البالغ في نوع الدراسة، وهو تساؤل طرحته "سبيفاك" تلك الناقدة الكبيرة في دراسات "التابع" بشيء من العمومية حين يكون التساؤل يشمل إمكانية الرجال أن يُنظّروا في النسوية، "وهل يمكن للبيض أن ينظروا عن العنصرية، وهل يمكن للبرجوازيين أن ينظروا عن الثورة، وهلم جرا؟ عندما تبدأ تلك الفئات في التنظير يصبح الموقف غير محتمل من الناحية السياسية. لذلك من الضروري أن يبقى أعضاء هذه الفئات واعين بالمواقع المعينة لهم فيما يتعلق بهذه الموضوعات" (جامبل، ٢٠٠٢) وعلى الرغم من وجود مبررات كثيرة في عدم النظر بأفق واحد في تحليل علاقة الموقع الهوياتي والثقافي بموضوعه، لأن الشاهد الزمني أظهر بعض الدراسات قبل بعض، وعليه فيكون تشكل الوعي بظهور الموضوع له أسبابه التي لا يسعها المقام.

يتأكد الخلاف بصعوبة الربط بين الإحساس الذاتي بالهوية النوعية "للمرأة والرجل" وبين ما يُكتب شكلا ومضموناً، إذ ترى الكثير من الكاتبات أن الخيال الإبداعي في كتابتهن متعالي عن هويتها "الجندرية" فـ"الخيال الجيد للكاتبة لابد أن يكون مزدوج الجنس، أو متجاوزاً للجنس" (موريس، ٢٠٠٢، صفحة ١٥١) وبالتماثل يتناول الرجال المرأة في كتابتهم، كما تكتب الكثير من النساء ما يدل على الخضوع للقيم الذكورية السائدة، ولذلك فيمكن إعادة النظر في فهم الهوية النوعية بتجاوز ما يمنح المرأة "على سبيل المثال" امتياز "الحساسية الأنثوية" التي تواجه الثقافة البطرياركية المهيمنة، والمتخفية في تبرير الواقع الراهن انتصاراً لمبدأ الضعف الأنثوي التي يتصورها الواقع المعاش على أنها أمر فطري وطبيعة بايلوجية، فلا يمكن تغييره.

على الرغم من استخدام الحركات النسوية "feminine" و "masculino" وهو ما يشير إلى الهوية النوعية المكتسبة من السلوك الثقافي، والذي يتم ترسيخه من وقت مبكر من حياة الفرد، والذي يرسخ على أنه فرق بايلوجي يعادل الجنس الذي ننتمي له، إلا أننا نتلمس في فعل "الكتابة" عند كثير من الكتّاب الذكور الذين تصنف كتاباتهم على سمات "أنثوية" وممكن الحكم بالمثل عند بعض الكاتبات المؤنثات في كتابتهن يبدين قيماً ذكورية، وعليه فقد يفضي الزعم بأن كل "كتابات النساء" تسفر من رؤية أنثوية، هو الحرص الشديد في الحفاظ على الحدود التي تفصل "النوع" وما ينتجه من إبداع.

الكتابة والهوية النوعية:

لم توضح الباحثة سبب اختيار المفهوم الرئيس الذي ألحقته بـ "المرأة"، وهو "الكتابة" الذي أغفلته تماماً، على الرغم من شيوع عنوانات لكتب ودراسات تتصدر بهذه الكلمة؛ مثل "المرأة والسرد" و "المرأة واللغة" و "المرأة والسلطة" و "المرأة والجنس" وغيرها مما يصعب إحصاؤه، ولعل ما يتمنى القارئ استيضاحه من الدراسة هو مفهوم "الكتابة" الذي ارتبط بأنماط الإنتاج الأدبي تحديداً، وهو ما يفضي إلى تصور خاص لـ"الكتابة" أضف إلى ذلك أن الباحثة تطرح أسئلتها النقدية إلى التراث الأدبي في بداياته الأولى حين كانت الثقافة الشفاهية هي السمة القارة في التواصل الثقافي، قبل بدء التدوين في القرن الثاني الهجري، فهل كانت "الكتابة" تفي حقّ إقامة تصور شامل لما "أنتجته المرأة العربية من إبداع" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٥) ولا سيما أن هذا التصور يغطي مساحة كبيرة من الأزمنة والأمكنة التي حكمتها الثقافة الشفاهية ليس بوصفها تعبيراً عن النمط التواصلي المتاح في ذلك الزمن، بل ممارسة تؤسس بنية معرفية تميّز أصحاب الشأن حدّ الإفتخار والاعتداد بالنفس حين تجد أولى كتب النقد المدونة تشي بأن الرواية عن أصحاب الصحف من الذين يعرفون الكتابة ليس من شأن العلماء الموثوقين الذين يحفظون النصوص في صدورهم، فهي مزية الذاكرة الوقادة، والفؤاد الذي لا ينسى، وليس من الغريب أن تقترن دلالة "صحفي" و "التصحيف" – التي تنتمي إليهما "صحيفة" من الجذر ذاته – في من ينعت بالتحريف من زيادة أو نقيصة :"وَلَيْسَ لأحد إِذا أجمع أهل الْعلم وَالرِّوَايَة الصَّحِيحَة على إبِطَال شيء مِنْهُ أَن يقبل من صحيفَة وَلَا يرْوى عَن صحفي" (الجمحي، ١٤٣١، الصفحات ج١ – ٤) وما تعارف من قول أصحاب الحديث "قال لي شعبة: لا ترو عن خلاس فإنه صحفي" (البلخي، ٢٠٠٠، الصفحات ج١-٢٥٣) فكيف لعنوان "الكتابة" أن تعبر عن كل الإرث الثقافي منذ البدايات وحتى اليوم؟

يُفهم من الكتابة بأنها تدوين مرئي للغة، بوصفها تقنية تسمح بنقل الفكر في زمن ما إلى آخر، ومن مكان ما، إلى آخر، في معجم أكسفورد تُعرّف الكتابة بأنها "استعمال الأشكال المكتوبة لأغراض تدوين الأفكار أو نقلها ..." (غروسبيرغ، ٢٠١٠، صفحة ٥٥١) وهو تعريف وظيفي، يرتبط بكل أشكال حفظ المعلومات، وبهذا يستعمل لفظ "الكتابة" على القرص المضغوط، كما أن "الكتابة" لا تختص بالنص المكتوب، فالـ"نوتة الموسيقية" تكتب أيضا لكي تُعزف.

على الرغم من الإعتقاد السائد الذي يفترض أن الكتابة تمثيل للكلام، غير أن القيمة التي تكتسبها "الكتابة" تجعل المجتمعات التي تفتقر ثقافتها لها توصف بأنها "بدائية"، بينما تُصنّف المجتمعات التي توظف "أنظمة كتابية" بأنها "عقلية" (غروسبيرغ، ٢٠١٠، صفحة ٥٥٢)

تشير أهمية الكتابة في المجتمعات إلى كونها الأثر الرئيس في إنتاج "الثقافة" فهي وسيلة غير فطرية، كما هو الحال في الكلام، الذي يكفي في تحققه كممارسة أن يكون المرء عضواً في مجتمع ما، ولا ينبغي الاطمئنان بثبات هذا الوصف على وجه الإطلاق، حين نعلم أن تطور التقنيات المقترنة بـ"الكتابة" معقدة ومتسعة تسهم في "إعادة انتاج" ما ينبغي حفظه وتداوله، بأشكال تواصلية مختلفة، محدثة تغيير في العلاقات الاجتماعية السائدة، ولذا يكون شيوع الكتابة دليلاً على إنتاج الثقافة، حكم نسبي، ففي المجتمع العربي ما قبل الإسلام وما بعده، تُعد "الكتابة" سمة مركزية في تشكّل الثقافة، وفي مجتمع آخر تسوده الكتابة، يقتضي البحث عن وسائل أخرى لإنتاج ما ينبغي تداوله، وعلى الرغم مما تقدمه الأنماط الجديدة من الكتابة في مجال هيمنة النخبة على ما يوصفون بالشعبويين، والوصول المباشر إلى "وسائل الإنتاج" إلا أن المفهوم العميق لـ "الكتابة" هو القدرة على إنتاج ما هو مؤثر، وتأويل ما يتداول من دلالات، ذلك الذي يقتصر على فئة لها القدرة على "توليد المعرفة" موظفة ما هو شعبي، ولا سيما في الصراعات السياسية، والمشاركات الاجتماعية، وينبغي أن لا نغفل ما يثيره "الذكاء الاصطناعي" الآن من إشكاليات توليد النصوص الجاهزة الآن وما يترتب عليها من آثار ثقافية في المستقبل.

من وجهة نظر فلسفية، لحظ "جاك دريدا" مجموعة من القيم الثنائية حيث يكتسب أحد الأطراف قيمة إيجابية وفق علاقة الإختلاف التي تضع الطرف الثاني في تصور سلبي، مثل: "الكلام /الكتابة" و "الشفهية / والتدوين" و "البدائي / المثقف" و "اللاعقلي / العقلي" و "الجسد / الروح" و "المرأة / الرجل" و "الغياب / الحضور" ... هكذا منظومة من المفاهيم المتقابلة، ورأى أن العلوم بحاجة أن تطور "علماً للكتابة" يلغي النظر إليها كمحاولة فاشلة لتمثيل الكلام ألفبائياً، وتجعلنا ندرك كيف يعمل نظام اللغة المكتوبة، واللغة المنطوقة، كل واحدة منهما منعزلا عن الآخر، وهو ما يجعلنا نحلل هذه ثنائيات في سياق إعادة كتابة التاريخ الأدبي للمرأة، وهو ما غاب في رصد هذا الكتاب.

ولكن الشيء المركزي أن ما يحفظ هو ما ينبغي تعلمه، وتداوله، ودراسته قد يتعلق بما أغفلته الباحثة تماما، هو المفهوم الواسع للأدب، الذي يضم الشعر والنثر والحكي والنقد وغيرها مما نألفه في كتب التراث، فأي قارئ للقسم الأول من كتاب "المرأة والكتابة" الذي يتناول أدب المرأة منذ أقدم النصوص إلى عصر النهضة، يتيقن أن ما يطلق عليه أدباً هو الشعر فقط، لأنها لا تستشهد إلا بالشعر، ولا تتناول إلا الشاعرات، وهو ما أضاع تفسيراً ناضجاً لطبيعة تاريخ الأدب النسوي في الجانب النقدي أو السردي، ولا سيما الحكي، الذي ارتبط بجزء كبير من الشخصيات داخل الأثر الفني، ولا سيما حكايات "ألف ليلة وليلة" التي أهملت لقرون، ونعتت بأنها أدب الصبيان والنساء، وفقد بذلك كتاب "المرأة والكتابة" مسارات مهمة وفق علاقة المرأة بالمهمشين، وعلاقة المهمشين بالحكي، وعلاقة الحكي بالليل، وما يوحيه من استتار وخفاء، وما يحيل الحكي من احتقار وامتهان، وعلاقة الرجل "الفحل" بالتسيّد والظهور، وعلاقته بالشعر، وعلاقة الشعر بالتدوين، وتوضيح ترابط هذه العلائق لا يسعه البحث إلا بما يتعلق بأخبار النقد عند المرأة، وإعادة تحليل ترجمة بعض الشاعرات، وتحليل بعض ما حفظ التاريخ لهن من شعر.

لعل اهمال الباحثة، لتلكم المساحات الواسعة للأدب، مبعثه تصور ضيق للأدب في العصور الأولى إلى عصر النهضة، فاختزاله في الشعر هو فخ ذكوري، كان ينبغي للباحثة أن لا تقع فيه، وهنا نعيد الجدل حول علاقة الكتابة بالجندر أو الهوية النوعية، إذ يخترق فعل "الكتابة" تمايز النوع البايلوجي، ويقودنا إلى سؤال غريب؛ صيغته متعلقة بالرجل الذي يتفق مع قيم الأنوثة، ويعي التحيزات الذكورية بحساسية عالية؛ أيمكن أن ينعت بأنه "نسوي"؟ ربما تكون الإجابة بـ"نعم" وتوسم بأنها إجابة منطقية لما تقدم، إذ بالإمكان إدراك عدم المساواة، وانعدام العدالة الاجتماعية، والتحيزات اللغوية بتفصيلاتها التحليلية، ولكن بعض الباحثات ترى أن الرجل "لا يمكن أن يمرّ بخبرتها كالمرأة" (موريس، ٢٠٠٢، صفحة ٣٠)

الأمر الآخر الذي حدّ من إعادة التنظير في مفهوم الأدب، هو قصور تصور العلاقة بينه وبين الحياة؛ قد توصف العلاقة بينهما بأنها علاقة شائكة إذ في كثير من الإعتقادات التي تذهب إلى قراءة الأدب وبراعة انتاجه، إذا كان أسلوباً قيّماً لتوجيه تأمل الحياة، وطالما توصف الأعمال الكبيرة بمعيار اقترابها من الواقع، فالشعور بأن الحياة تُعاش بمسارب شتى؛ بمعنى أنها تسبق الأدب، وليس للأخير إلا أن يتمثلها بالكلمات، ومن الواضح أن هناك تياراً وضح الخلط بين الأدب والحياة، بعد نحت تصور جديد عن اللغة، وعلاقتها بالواقع، فلا تتحقق الحياة والتجارب التي تبلور مفهوم الواقع إلا عن طريق الكلمات والصور والرموز، التي تتشكل منها الصيغ الثقافية، بما تمنحنا وعياً بالتمييز ومعرفة بالنظام، فالبشر ينظمون وعيهم بالواقع الخارجي وبأنفسهم من قبل، بالكلمات، فالحديث عن تمثل الذات في ثنائيات تستقطب وتستبعد، حين تقول "أنا" في قبال "أنت" وتصاغ مفاهيم أخرى؛ مثل "أنا بنت، فلست ولداً" و "أنا طيبة، لست شريرة" و"أنا صغيرة ولست كبيرة" وإلا لبقيت العلاقة بالذات والواقع هو استجابة مستمرة لمجموع المثيرات الحسية التي لا حدود واضحة لها، ولذلك فإن اللغة تلعب دوراً مركزياً في إدراك العالم، وذلك لا يبتدعه المرء وإنما بموروث من القيم تشكله بنية الكلمات، التي تشع بكل الدلالات الثقافية التي ستدمج بالذات، وتشكلها في الوقت نفسه، لأن اللغة بوصفها ضرب من النمو الاجتماعي تحدث في وقت مبكر جداً من حياة الفرد، لتعيد انتاج الصيغ الثقافية، والتي تحمل القيم الإنسانية لتورثها

وتضمن لها الاستمرار، فظلال "أن يكون الفرد امرأة يمكن أن يعني بطبيعة الحال، أن تكون لطيفة ومحبة للرعاية" (موريس، ٢٠٠٢، صفحة ٣٧) ولا يفوتنا ما أشارت إليه الباحثة من تحيز اللغة ذاتها للذكورة، تلك اللغة التي يتعلمها المرؤ مرغماً بوصفها ضرب من السلوك الإنساني، والتي تحمل كل موروث الصيغ الثقافية، ومراجعة سريعة يتضح حجم انحيازها، فـ"تذكير المؤنث، واسع جدًّا؛ لأنه رد فرع إلى أصل" (سكين، ١٤٣١، صفحة ١٧٣) والنصوص والشواهد كثيرة في "استلاب أنوثة اللغة وردها إلى أصل ذكوري مفترض" (الغذامي، ٢٠٠٦، صفحة ١٦) وهو ما ينبغي أن تكافح من أجله المرأة، وتستحدث لها مساحة في اللغة مغايرة لتنتج أدباً متفرداً، وبالتالي حياة مختلفة، فليس لنا أن نعتقد أن الحدود بين الأدب والحياة واضحة المعالم، ولا تسمح بالنفاذ للتفاعل والتأثر، فعلى الباحثة أن تستكشف الأدب ليس بوصفه انعكاساً لواقع مسبق لحياة المرأة، بل بخبرة لغوية وبالتالي ثقافية تؤثر في انتاج الدلالة والقيم التي تزيد من عدم المساواة، وفرض هيمنة الرجل، مما يدعو المعنيين بشأن الدفاع عن النسوية أن يتساءلوا حول ما يقدمه الأدب العالمي؟ وما يقدمه الأدب الذي ينتمي للغتنا؟ والأهم مراجعة النصوص التراثية التي أسست قيماً موروثة، في طريقة انتقائها فيما يخص صورة المرأة ودورها في هذا الإطار.

المرأة وكتابة التأريخ:

انطلق تصور الباحثة من مسارين مركزيين في الدراسة؛ الأول: عدم الفصل بين ما هو أدبي وما هو لغوي، بناء على أن مادة الأدب اللغة، وبوصف الأدب فن اللعب باللغة، والمسار الثاني: الثقل التاريخي في كتابة المرأة، وهو تصور يوضح موقع المرأة داخل اللغة، ويستنطق اسهامها في المجال الإبداعي، الذي سيؤكد خصوصية كتابية للمرأة، ولا سيما في الكتابة الأدبية لأنه "أدب أقليّة مجتمعية، تعيش ظروفاً خاصة تنعكس على رؤيتها وتصورها للأشياء والعالم" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٥)

كلا التصورين سيكونان رهناً لمفهوم "كتابة التاريخ" الذي يعد عاملا حاسما في علاقة المرأة بالإسهام الحضاري، ولا سيما في البدايات الأولى التي تعترف الباحثة بأنه عرض تأريخي موجز ومتواضع، ولعل مفهوم "كتابة التاريخ" أكثر دقة من مفهوم "التاريخ" لوحده، لأن التاريخ كحدث وجودي لا يرصد إلا مرة واحدة، وسينقل بالكلام أو الكتابة، أي بوسيلة ليست من سنخ وجوده، ولا نتصور أنها ستكتسب طابعاً جوهرياً ثابتاً، بل صيرورة متحولة حسب متغيرات الوعي بالواقع المعاصر الذي يفرض إعادة كتابة التاريخ كل مرة، ويؤوله بأشكال متعددة، وهكذا يعاد بناء التاريخ كل مدة من الزمن بحقوله المتنوعة، وبهذا تحاول الباحثة إعادة كتابة تاريخ الأدب النسوي، من وجهة نظر المرأة التي ينبغي أن تكون بالضرورة أكثر حساسية تجاه قضايا المرأة تحديداً، وهو ما لا يمكن التعالي على تأثير العامل الجندري، ومن الضرورة بوجه أن يشكل ذلك وعي جديد بإشكاليات مستحكمة لم تكن منظورة سابقاً.

في كتابها الرائع "نشأة النظام الأبوي" كان افتراض "غيردا ليرنر" يعالج ما أسمته "جدل تاريخ النساء" (ليرنر، ٢٠٠٧، صفحة ٣٠) وهو التناقض الكبير بين دور النساء في صناعة المعنى وتحولاته، وتأويله، وبين اسهامهن المحوري في بناء المجتمع، على الرغم من عموميته منطقيّاً في مسلمة بدهية لم يطالها النظر في إسهام المرأة الحضاري، ومن موقعها الذي ينقسم حسب بعض التصورت إلى طبيعتها البايلوجية الذي يفضي إلى التعالي على التاريخ، أو إلى موقف تاريخي وليس مؤبداً والذي يشي بتغير الموقع في لحظة مستقبلية ما، فهو كتاب وصف بأنه "كتاب تفكيكي وتأسيسي في آن" (ليرنر، ٢٠٠٧، صفحة ٧) وانطلقت من أسئلة كبرى حول موقع المرأة و موقفها من الحضارة والأدب، ومناقشة موقف الفلسفات الكبرى من المرأة، وهو ما افتقرت إليه دراسة الباحثة "رشيدة بنمسعود" إذ لا نجد ذكراً لهذه الكتب المؤسسة لتصورات الفلسفة النسوية، مع كتب أخرى كانت غائبة، لا يمكن أن نتصور كتاباً في الدراسات النسوية بوسعه أن يتجاوز رؤاها ومنهجها وطبيعة أسئلتها، كما في كتاب "بورديو" الشهير "الهيمنة الذكورية" الذي يطرح في جانب كبير منه "ثبات البنى

الجنسية واستقلاليتها بالنسبة إلى البنى الاقتصادية، وإلى أنماط إعادة الإنتاج" (بورديو، ٢٠٠٩، صفحة ٨) وهو رأي بالضد مما تدعيه كثير من الفلسفات المادية، والنظريات النسوية، التي تربط تحولات البنى الجنسية بتحولات البنى الأخرى، إغفال رؤى بورديو في الدراسة المنظورة يؤثر على عمق أفكارها، حين لا تشرع بالأسئلة الكبرى التأسيسية، وتبدأ من استشهاد في مدخل تأريخي بكلمة السيدة "خالدة سعيد" التي تعالج أسباب وأد مواهب النساء المعاصرات، لأن العقم الأدبي على حد وصفها، ليس من صميم كينونتها، فـ"إن حالة العبودية التي أنشأنا عليها نساءنا أتلفت مواهبهن العظيمة، وقضت على قدراتهن العقلية، فحياة المرأة تنقضي كما تنقضي حياة النبات" (حطب، ١٩٧٥، صفحة ٤٣) وكأن الباحثة تؤمن بأن قلة ما ورد من "أدب المرأة" إلى الوضع الاجتماعي الذي لم يسمح بتفتق مواهبهن، وما يؤكد عبارتها التي تحيلها إلى باحثة أخرى بوجود اسهامات نسوية في عصر ما قبل الإسلام "فإذا اعتبرنا أن النهضة الأدبية النسائية قديمة حسب رأي الدكتورة عائشة عبد الرحمن ..." (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٨) وقد أقرّت أن أغلبية شعراء تلك المرحلة من الرجال، ولكن لائحة الشعراء لم تخلُ من الشواعر اللواتي دونت أسماءهن أولى المصادر النقدية، مثل "الخنساء بنت عمرو بن الحارث" (الجمحي، ١٤٣١، الصفحات ج١ – ٢٠٣) التي أدرجها ابن سلام في "طبقة أصحاب المراثي" ولعلها الشاعرة الوحيدة في كتابه، والتي حازتْ على اعتراف كبير ممن تضرب لهم القباب للحكم على الشعراء:

"كان النابغة تضرب له قبّة حمراء من أدم بسوق عكاظ، وتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها، فأنشده الأعشى أبو بصير، ثم أنشده حسّان بن ثابت، ثم الشعراء، ثم جاءت الخنساء السّلميّة فأنشدته، فقال لها النابغة: والله لولا أنّ أبا بصير أنشدنى (آنفا) لقلت إنّك أشعر الجنّ والإنس، فقال حسّان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدّك! فقبض النابغة على يده، ثم قال: يابن أخى، إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى:

فإنّك كاللّيل الّذى هو مدركي ... وإن خلت أنّ المنتأى عنك واسع

ثم قال للخنساء: أنشديه، فأنشدته، فقال: والله ما رأيت ذات مثانة أشعر منك! فقالت له الخنساء: والله ولا ذا خصيتين !!" (قتيبة، ١٤٢٣، الصفحات ج١ – ٣٣٢) وفي اقتباس النص بأكمله ممكن أن نلحظ أن الباحثة استشهدت بالنص من كتاب "الأغاني" مع أن ابن قتيبة أقدم، ويورده الخبر بدلالات كان الكتاب بحاجة إلى لمحها، منها تصنيف النابغة الجنسي في قوله "ذات مثانة" وكأن الذكور لهم تراتبية مختلفة، على الرغم من إشادته الأولى التي أزعجت حسان بن ثابت، وهذا التصنيف أقرّته هي بقولها "ولا ذا خصيين" وكانت فرصة مؤاتية أن تناقش تصورات علم النفس التحليلي، ولا سيما في إطار إنجازات "فرويد" في حديثه عن الافتراض سيء الصيت حول "إخصاء النساء" أو "حسد القضيب" عند النساء، (موريس، ٢٠٠٢، صفحة ١٦١) والحادثة تشي بوجود شاعرات غير الخنساء، ولكن لا تعترف بشعرهن الذائقة النقدية آنذاك، مع أننا لا نعلم ما الذي أنشدته الخنساء حين استزادها النابغة بعد اعتراض حسّان، إنه شعر غائب، فكان بالإمكان أن توظفه الباحثة بتقصير تاريخ الأدب الذي لم يحفظ كثيراً من أشعار النساء، مثلما لم يحفظ شعر المشركين حين بدأ تدوين الموروث الشفاهي، من هنا نظن أن هذا الموضع تحديدا هو ما ينسجم مع عنوان الكتاب في علاقة المرأة والكتابة في عصر اتسم بالشفاهية!! ولا ننسَ أن ابن سلام لم يضعها أول الأسماء في طبقة المراثي، وجعل "متمم بن نويرة" قبلها، كما أنه لم يروِ خبر اعتراف "النابغة الذبياني" بموهبتها.

ومن المهم أن الباحثة نوّهت إلى الغرض الشعري الذي عُرفتْ به الخنساء، مشيرة إلى عوامل التنشئة الاجتماعية التي تفرق بين الجنسين، وتقسم العمل والوظيفة لكليهما، معللة سبب ارتباط "الرثاء" بالنساء، ولا سيما إذا علمنا أن النقد القديم أكد تراتبية لتلكم الأغراض الشعرية، التي يكون غرض "المديح" على رأسها، ويذكر بعض الباحثين "أننا نملك مراثياً قرضتها سبعون امرأة، اشتهرن بأنهن شواعر لا تنسب إليهن في الغالب الأعم إلا قصائد رثائية" (اليوسف، ١٩٨٣، صفحة ٣٣١) فتقدم آراء مختلفة، مرجعية بعضها يصب في الاتجاه الاجتماعي، فالرثاء يؤدي وظيفة استنهاضية للرجال، لأخذ

الثأر، وبذات الوقت هو مشاركة حد التوحد بالرجل في تحسس ألمه داخل ذات المرأة المفجوعة، وبخضوعها لذلك الألم نفسه.

وبعض التفسيرات تتجه سايكولوجيا، وكأنها تؤكد تبني هذا الغرض الشعري من النساء يرجع إلى كينونتها، وليس إلى عوامل تاريخية فـ"الرثاء هو المجال الفسيح الذي تطلق فيه عواطف المرأة، لأنه نوع من النواح والبكاء، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا حزبها الدهر أو كربها القضاء، وأنها لتلتذ الحزن وتستدميه وتوالي البكاء وتستطيله، وفاء وحسرة، أو ضعفا ورقة، ثم تنفس عن نفسها إن كانت شاعرة بمقطوعات تسكب فيها لوعتها أو حسرتها" (الحوفي، بلا، صفحة ٦١٢) وهو ما رفضته الباحثة كما رفضت الناقدات النسويات قبلها ما يشبه هذه الحجج، لأنها تُرجع كل ما كانت أسبابه ثقافية مكتسبة إلى طبيعة المرأة الأنثوية، والسبب التاريخي هو الوضع الاجتماعي الذي يفرض الصمت عليها مع الحبيب، ويسمح بالحوار مع الأب أو الأخ أو الزوج، فتصورهم أبطالاً، وتستعيض بهم، عن شخصية "الحبيب الغائبة" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ١٠) على حد وصفها، فالرجل يحب، ويبوح به، والمرأة تعشق وتكتم عشقها، وهنا تبرير يؤكد نفسه بالكبت التي تعاني منه بعض النساء اليوم، باستبعاد العامل التاريخي من عدم نقل قصائد النساء، ولم يشملها التدوين، ولا سيما الذي يرتبط بالأغراض الشعرية التي كانت وقفاً على الفحول مثل المديح والهجاء، وهناك اسقاطاً للتفسير السايكولوجي، باستعاضة ذكر الحبيب في الشعر بذكر الأب أو الأخ كما فعلت الخنساء، على الرغم من وجود الكبت الذي يدعو إلى إخفاء الذات الفاعلة، ومما يسعف ما سبق في شخصيات العصر الحديث، هو ما صرحتْ الأديبة "فدوى طوقان" التي تقول "العالم الخارجي كان (تابو) محرماً على نساء العائلة" (طوقان، ١٩٨٥، صفحة ١٣٢) إذ كانت توقع قصائدها الغزلية باسم تاريخي مستعار، لشاعرة عباسية، وهي "دنانير" فتقول: "كنت اوقع قصائدي الغزلية باسم دنانير، وأبعث بها الى مجلة الأمالي حينا والى مجلة الرسالة القاهرية حينا آخر . كانت كلمة الحب تقترن في ذهني بصورة الفضيحة والعار ، فهذه هي الصورة التي طبعتها في نفسى البيئة المحيطة منذ الصغر" (طوقان، ١٩٨٥، صفحة ٨٩)

اتسمت المقاربات بين أخبار بعض النساء في التراث وبعض أمثلة التحليل المعاصر لحياة المرأة المعاصرة كما في المثال أعلاه، لتؤكد استمرارية ثقافة الكبت والخوف عند المرأة، متعالية عن الشروط التاريخية التي ينبغي تفكيكها وتجاوزها،

ولّادة بنت المستكفي:

تُعدّ الشاعرة الأندلسية "ولّادة بنت المستكفي" النموذج الأمثل للمرأة النسوية في كتاب "المرأة والكتابة" ولقد ذكرتها بمعرض حديثها عن بعض سيرتها في عنوانها الفرعي "المرأة الأديبة في الغرب الإسلامي" مشيدة بها أي إشادة، معبرة عنها بالرمز النسائي التحرري، وذات مستوى ثقافي، وموقع اجتماعي متفرد من بين كل الشاعرات في التراث "فتعتبر رمزا من رموز الشعر النسائي الأندلسي حتى اقترن اسمها في تاريخ الأندلس بالمستوى الحضاري والتحرري الذي عرفته المرأة العربية الأندلسية. فقد كان منزلها منتدى الأدباء والشعراء، ودشنت للنساء سنة الانكشاف" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ١٧) لتثبت لها أبيات تتخذها الباحثة مثالا لفضاء الحرية التي تستنشقها "ولادة" والتي تؤكده بقولها:

أنـا واللهِ أصلـح للـمعـالي وأَمشي مشيتي وأتيهُ تيها

وَأمكنُ عاشقي من صحن خدّي وأعطي قُبلتي مَن يشتهيها (الكلبي، ١٩٥٥، صفحة ٧)

وفي هذا الموضع لعل هناك ملاحظات فاتت الباحثة أن ترصدها فيما ذكرته من حياة "ولّادة" وشعرها تؤكد الاستلاب للنظرة الذكورية المهيمنة للمثال النموذجي الذي كان موضع الاستشهاد، بدءًا من الاسم الذي حفظه التاريخ للشاعرة المتحررة، فالمرأة لا تعرف بذاتها، إن لم تلحق باسم الوالد أو الزوج، إذ نستكشف أن اسم "ولادة" هو ملحق دائما بـ"بنت المستكفي" وهنا يتضح فعل "كتابة التاريخ" وما يلعبه من دور خفي، كان ينبغي الالتفات له، وتفكيك العلاقة المتسمة

بالخفاء واللا مساواة، كما أن الرجل الثاني الذي اقترن اسمها به؛ هو عشيقها الشاعر "ابن زيدون" ومن الجدير بالذكر أن تذكر بعض أخبار عشيقها، وبعض أشعاره ورسائله في ترجمة الشاعرة التي ينبغي أن تذكر أدبها الذي لم تدونه أمّات الكتب والتراجم إلا نتفاً من أبياتها. (الأزراري، ٢٠٠٤، صفحة ١/ ٤١١) ولعل سير الشواعر لا تذكر إلا أبياتاً نزرة من الشعر، وهو مما يدل على عدم الرغبة في تدوين شعر المرأة، وهو ما ينبغي أن يتناوله الكتاب بشيء من العمق، والأمثلة كثيرة على غياب شعر بعض من حفظ التاريخ أدبهن، وليس أدل على ذلك من الشاعرة "اعتماد" زوجة "المعتمد بن عباد" والتي اشتهرت بلقب "الرميكية" فليس لها شعر في كتب الأدب إلا عجز من بيت شعري أجازت به المعتمد، وكان سبب وصله بها، كما يذكر ذلك كل من عرّف بها؛ فهي "هي أم أولاده وتشتهر بالرميكية، وسبب اتصالها بالمعتمد هو كما قيل: إن المعتمد ركب في النهر ومعه ابن عمار وزيره وقد زردت الريح النهر فقال ابن عمار لوزيره: أجز (صنعَ الريحُ من الماءِ زَردْ) . فأطال الوزير الفكرة فقالت امرأة من الموجودات على ضفة النهر: (أيّ درعٍ لقتالٍ لو جَمدْ) فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ونظر إليها فإذا هي غاية في الحسن والجمال فأعجبته فسألها: أذات بعل أنت؟ قالت: لا، فتزوجها وولدت له أولاده الملوك النجباء" (العاملي، ١٣١٢هـ، صفحة ٤١، ٤٢) فلا تتعدى ترجمتها في كل المصادر أكثر مما ذكر أعلاه، على الرغم من أنها تُعد من شواعر النساء، ولم يُعرف لها إلا إجارة عجز من بيت، مع لحاظ الطبقة التي تنتمي إليها (اعتماد) بوصفها إحدى العاملات الغاسلات على ضفة النهر، كما تصفها بذلك جُل المصادر "فقالت امرأة من الغاسلات: أي درع لقتال لو جمدْ" (السيوطي، ١٤٣١هـ، صفحة ٩٨) كما لا يفوتنا نهاية الموقف، إذْ تزوجها، فلا يمنع من ذلك إلا كونها ذات بعل، وهي مواقف تستحق النظر في معرفة موقع المرأة في ذلك الوقت، لنقابل فعل الكتابة بوصفها مؤسسة كبرى، كيف تنتظم داخلها السير والتراجم، وتخضع لضوابطها الاجتماعية لما ينبغي أن يدون أو يلغى، وما يختصر وما يجب الإسهاب فيه.

كما لا يفوتنا أن نتأمل أشهر بيتين شعريين محفوظين للشاعرة "ولادة بنت المستكفي"، فقد كان شاهداً وحيداً للباحثة يشي بالحرية التي كانت تتمتع بها الشاعرة بتأكيد كثير من المصادر أنها طرزتهما بالذهب على جانبي ثوبها، فقد "كتبت بالذهب على طرازها الأيمن: (أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها) وكتبت على الطراز الأيسر: (وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها)" (التلمساني، ١٩٩٧، صفحة ٤/ ٢٠٥) فإن الثيمة المركزية في الشعر المدون الأكثر شهرة في ترجمة حياة الشاعرة، ينطلق من تصور نمطي متخيل في رؤيته للمرأة، تتمحور حول كينونتها بوصفها موضوعا للرغبة الذكورية، وهذه الرغبة من طرف واحد، وبالتالي يقود هذا التصور إلى "تفخيم الأنا الذكورية، الأمر الذي يقود إلى خفض قيمة الآخر" (المحمداوي، ٢٠١٣، صفحة ٥٧) والآخر بلا ريب هو "المرأة" والأشد نكاية أن هذا التصور مما يشكل بعداً نفسيا وسلوكياً يدخل في صميم هوية المرأة، وتبنّيها له، ودفاعها عنه، مع أنه فعل تخيلي ذكوري يتشكل فيه خطاب يحول الجسد الأنثوي إلى جسد ينعش الرغبات المتعددة، والمكبوتة بذات الوقت للثقافة الذكورية، فهو محل إمتاع، يعكس أداءً بلاغيا تتضح في البيت الثاني، فما تفتخر به هو تمكين العاشق لها، وليس من تعشقه هي، كما أن فعل الإشتهاء يسند للرجل في عجز البيت، حتى أنها سلبت هذا الفعل من ذاتها، فهي مستلبة مسبقاً إلى النظرة البطرياركية، لأن مفهوم الرغبة الذي يرتبط بالخطاب الذي ينبغي أن يكون محايداً، ليجرد المفاهيم من تحيزاتها الجندرية، يكون هو أحد موضوعات الرغبة، فهو ما يتصارع من أجله، وذلك ما قرره "ميشيل فوكو" في وصفه للخطاب "هو السلطة التي نحاول الاستيلاء عليها" (العالي، ٢٠٠٥، صفحة ١١١) وهنا ترتبط الرغبة بالجسد وبالخطاب الذي يعقلن التصورات المعرفية لذلك كله، وهو ما يجعل المرأة جزءاً من هذا الخطاب الذكوري بامتياز، الذي ينظم رؤيتها لنفسها وللعالم، فالإنسان يتنفس الخطابات وهي تعمل بلا وعي، بحلقات عديدة في مسار السلطة، فيكون تصوره عن الجسد؛ الرجل والمرأة على السواء، هو تصور ثقافي، يمثل البعد اللغوي والمعرفي والأخلاقي ومما تختزنه الذاكرة لتلكم المجالات، وهو ما يوحي به عجز البيت الأول حين يكون فضاء الحرية في تصور المرأة هو "التيه" وكأنها لا يمكن أن تنفلت من

قاموس الذكورة في أثره على تفكير المرأة، على الرغم من الترميز بحريتها المطلقة في قولها "وأمشي مشيتي" كما أن المعالي ليس حقّاً تكتسبه النساء، فهو حكر على الرجال، ولذلك تحتاج إلى قسم لإثبات صلاحيتها لهذا الوصف، وإن كانت تشعر باقتحامها محذوراً أخلاقيّاً، وصفته بالـ"تيه" وهو ما نلحظه بطرف خفي من وصف كتب التراجم التي ذكرت "ولّادة" اقتران موضوع مخالطتها بالشعراء، وقصة عشقها من ابن زيدون، وصيغ الدعاء لها بالمغفرة والعفو، كما في بعض عباراتهم " وكانت تخالط الشعراء .... على أنها – سمح الله لي ولها، وتغمد زللي وزللها" (الكلبي، ١٩٥٥، صفحة ٨) وقولهم أيضاً "ويطربني قول ولادة بنت المستكفي الأموي عفا الله عنها" (الشرواني، ١٣٢٤ هـ، صفحة ٢١٥) وغيرها من العبارات التي تشي بأن الشاعرة اقتحمت محذوراً ليس من شأن النساء، ومما لا يجوز التصريح به، والمجاهرة أمام الملأ فيما تنشده من شعر في مجالسها المختلطة مع الشعراء، وشعرها في ابن زيدون، فالغزل من شأن الرجال، وتكون المرأة موضوعاً له، وليس لها إلا الرثاء كما قرأنا عن "الخنساء" لأنه مناسب لأعراف المجتمع آنذاك، ومما يسمح به، فيكون حظه التدوين والحفظ، ويعبر عن صوتها في هذا المسار، ذلك الصوت الذي لا يسمح له أن يقتحم أغراضاً أدبية تدعو إلى المواجهة، مثل "الهجاء" فليس لهذا الأمر إلا الرجال، وهو ما نلمسه في الترجمة المبتسرة لـ "ولّادة" حين تكون موضعَ صراعٍ بين الشاعر "ابن زيدون" الذي عشقته، وبين الوزير "ابن عبدوس" الذي أجهد نفسه في الوصل بها، فكانت المرأة بؤرة تنافس للرغبات الذكورية، وهو ما دفع الوزير أن يرسل وسائط من النساء لها ترغبها فيه، وتستميلها، "فبلغ ذلك ابن زيدون فأنشأ هذه الرسالة على لسان ولّادة، تتضمن سب الوزير أبي عامر والتهكم به، وبنى غالبها على نوع التلميح، وجعلها جوابًا عنها، فاشتهر ذكر الرسالة في الآفاق، وأمسك الوزير ابن عبدوس عن التعرض إلى ولّادة" (الأزراري، ٢٠٠٤، صفحة ١/ ٤١١) فـ "ولّادة" لا تكتب رسالة سخرية وهجاء مر بذاتها، بل تكفل ذلك "ابن زيدون" وإن كان الكلام ينسب لها ظاهراً أمام الناس، وهنا ينبغي التساؤل عن علة ذلك، لماذا يكتب الرجل بدلا عنها؟ فهل يحسن هذا الفن أكثر من المرأة التي لم يكن لها حظ منه؟ وهو سبب شيوعها في الآفاق. هل أراد التشفي من الخصم، والنيل منه متقنعاً بوجه المرأة التي تمنع الأعراف الاجتماعية الرد عليها بوصفها ضعيفة، وبذلك لا تصلح أن تكون نِداً للرجال، الذين طالما رفعوا من شأن خصومهم بالقوة، كي يثبتوا لذواتهم أنهم أقوى بأسلوب غير مباشر من تفخيم الذات واثبات الغلبة والسيطرة، ولا أشهر من ذلك قول "عنترة العبسي" في أبياته ذائعة الصيت:

ومُدَجَّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ لا مُمعِنٍ، هَرَباً ولا مُستَسْلِمِ

جَادَتْ يَدايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ بِمُثَقَّفٍ صَدْقٍ الكُعُوبِ مُقَوَّمِ

فشَكَكْتُ بالرّمْحِ الأصَمّ ثِيابَهُ لَيْسَ الكَريمُ على القَنَا بِمُحَرَّمِ.

"المدجّج: بكسر الجيم وفتحها، المتغطي بالسلاح، وهو لا يسلم نفسه ولا يهرب" (القرشي، بلا، صفحة ٣٦٥) إذ يصف خصمه بالكريم والقوي، فلا يرد الرجل على المرأة في المساجلات، ولا ينازلها في ميدان الكتابة أيضاً، ولذلك فقد أدرك الوزير أن كاتب الرسالة رجل، وهو بلا ريب "ابن زيدون" "ولم يرد ابن عبدوس على خصمه برسالة أخرى، بل دبر له مؤامرة واسعة النطاق، جعلت أبا الحزم بن جهور يحبسه" (ضيف، صفحة ٣٢٦) وفي كل تأويلات الخبر يبقى موقع المرأة في الكتابة نيابة عنها أمراً يتطلب النظر، بما ينسجم مع رؤية الباحثة في تقصي دلالات ترجمة النموذج الأمثل في الأديبات التي ذكرتها في كتابها الذي يتفحص علاقة المرأة بالكتابة، ولعل ما يضاف من نقد فات الباحثة أن تستدل به على نموذجها الأعلى، وقد ذكرته في نماذج أنثوية آخرى في المغرب من عدم استمرارية التجربة الأدبية، مما نعتته بـ"العقم الأدبي" (بنمسعود، ٢٠٠٢، صفحة ٦٤) مما جعلها تستشهد بقول عبد الكريم الخطيبي الذي يقول في نتاج الأديبات المغربيات المعاصرات: "ما نزال في مرحلة ما قبل تاريخ الأدب النسوي" (الخطيبي، ١٩٧١، صفحة ٦٨) وهو ما تقرنه الباحثة بتعليل نسيت أن تسنده لـ "ولّادة بنت المستكفي" في علاقة "العقم الأدبي" بـ"الزواج والإنجاب والأمومة" فقد أورد

"ستانلي هايمن" في معرض حديثه عن "النقد المتصل بالعمل الرمزي" أن "كنث بيرك" في عبارته المعهودة "أن الكتاب جملة واحدة امتدت واستطالت" (هايمن، ١٩٦٠، صفحة ١٨٣) وجملة واحدة تحدد طريقته في اتجاهين من قوله "الأدب عمل رمزي" فكان يؤكد الرمز في البدء، وفي أواخر أيامه أكد "العمل" وهو توجه أحال إلى تفسير خمود مواهب المرأة بعد الزواج وبعد إنجاب الأطفال، مما يدعم القول بأن نتاجهن الفني هو ضرب من تسامي دوافع الجنس والأمومة. (هايمن، ١٩٦٠، صفحة ٢٠٨) وهنا نذكر أن كل كتب التراجم تؤكد عدم زواج "ولّادة بنت المستكفي" فقد "عمرت طويلاً، ولم تتزوج قط" (السيوطي، ١٤٣١هـ، صفحة ٩٠) وهنا قد تتضح علاقة المرأة بـ"النتاج الأدبي" من جهة، وبـ"الزواج" ولواحقه من الإنجاب والأمومة، وكأنهما ضدان، ففي تصور الثقافة الذكورية أن الوظيفة المركزية للمرأة هو الإنجاب والأمومة، وليس ما بعدها دور في المجتمع إلا إذا فقد هذه الوظيفة، فيمكن أن تتحرر لتأخذ ميداناً آخر لها فتزاحم به الرجال مثل ميدان الأدب، الذي اشتهرت به من لم تتزوج وتنجب منهن، وتحررت من الكبت الذكوري، وأصيبت بـ "العقم الأدبي" حين تحقق هويتها التي رسمتها الثقافة البطرياركية لها مسبقاً، والتي تطمح المرأة ذاتها لتحقيقها، وبذلك تحقق هدفها الأسمى ولا حاجة حينئذ للأدب.

المرأة وأخبار النقد الأدبي القديم:

على الرغم من تحييد دلالة "الكتابة" في الدراسة على الشعر فقط في قراءة الباحثة للبدايات، لا يشكل إهمال الأخبار التي تتحدث عن دور المرأة في الممارسة النقدية قبل الإسلام وبعده نقصاً حادة في الدراسة فحسب، حتى على وصف تلك الأخبار بالانتحال والقلة، بل يحرمنا من بناء صورة المرأة من وجهة نظر الثقافة وقت التدوين، ويحرمنا من المخيال الذكوري في تشكل نموذج المرأة الناقدة، وهو موضوع قلما يلفت أنظار الباحثين، كان المأمول من الباحثة بوصفها "أنثى" أن تكون حساسيتها وقّادة في تلك المحطات المهمة، فليس في الكتاب خبر تحكيم "أم جندب" في "أمرئ القيس وعلقمة الفحل" وكيف تطورت الرواية بعد أكثر من مئة عام ونيف من السنين، من عصر " ابن قتيبة" ت٢٧٦هـ إلى عصر "المرزباني" ت٣٨٤، فقد روى الأول قصتها في ترجمة "علقمة": "تميميّ، من ربيعة الجوع، وهو الذى يقال له الفحل، وكان ينازع امرأ القيس الشعر، فقال كل واحد منهما لصاحبه: أنا أشعر منك، فقال علقمة: قد حكّمت امرأتك أمّ جندب بينى وبينك. فقال: قد رضيت." (قتيبة، ١٤٢٣، صفحة ١/ ٢٣١)

وكأن سياقها في بيان سبب تسمية بـ"الفحل" فيستشعر القارئ مركزية الشاعر الفحل، وهامشية "أم جندب" مع أن الخبر لم يرد حتى في ترجمة "أمرئ القيس" زوجها، ولأن سياق الحدث هو نزاع فحلين كبيرين، فمن المفارقة أن تحكم بينهما امرأة، وسنورد الخبر على طوله للإشارة إلى بعض المفاصل الدلالية:

"فقالت أمّ جندب: قولا شعرا تصفان فيه الخيل على روىّ واحد وقافية واحدة. فقال امرؤ القيس قصيدته التى أوّلها:

خليلىّ مرّا بى على أمّ جندب ... نقضّ لبانات الفؤاد المعذّب

وقال علقمة قصيدته التي أوّلها: ذهبت من الهجران في غير مذهب ... ثم أنشداها جميعا، فقالت لأمرئ القيس: علقمة أشعر منك، قال: وكيف؟ قالت: لأنك قلت: فللسّوط ألهوب ...فجهدتّ فرسك بسوطك وزجرك، فأتبعته بساقك، وقال علقمة:

فولّى على آثارهنّ بحاصب ... وغيبة شؤبوب من الشّد ملهب

فأدركهنّ ثانيا ... فأدرك طريدته وهو ثان من عنانه، لم يضربه بسوطه، ولم يمره بساقه، ولم يزجره، فقال لها: ما هو بأشعر منّى ولكنّك له عاشق! فطلّقها وخلف عليها علقمة، فسمّى (الفحل) لذلك" (قتيبة، ١٤٢٣، الصفحات ١/ ٢١٣ –

٢١٤) أصبحت "أم جندب" حكماً بتخويل الخصم "علقمة" الذي سينتصر على زوجها، ولها أن تختار موضوعاً وفق ضوابط فنية، مثل اشتراك القافية والروي، فلماذا اختارت وصف الخيل! أكان الموضوع معبراً عن رؤية أنثوية أم ينبثق من توجيه ذكوري؟

في حكم "أم جندب" بعض الإشكاليات، فقد اتهمها زوجها بالتحيز لصالح خصمه، مما أفضى إلى طلاقها، وليتزوجها بعده ذلك الخصم الذي ينازعه الشعر، مما يشعرنا الخبر بتشيء المرأة، وكونها موضع امتلاك، ولا شيء أخطر في حياتها من الزواج والطلاق والأمومة وغيرها من الأدوار التي دائما ما تأتي مصحوبة بها، وعلى الرغم من الشك الكبير الذي يحوم حول هذه القصة، إلا أن البحث يرصد تشكل المخيال الذي يكشف الوعي الذكوري في النظر إلى اسهامات المرأة في ذلك العصر، فقد تطورت تلك الرواية عند "المرزباني" وارتبطت بما يشعر بوجود مقدمات منطقية لصحة تحيزها لـ "علقمة" على الرغم من مراعاة "أم جندب" لكثير من قواعد النقد، فقد أخذت معايير الموازنة في المضمون والشكل، كما أنها عللت حكمها بحجج مقنعة حتى للقارئ المعاصر، ومن أوجه هذه المقدمات المنطقية لإثبات تحيزها، أنه أورد الخبر مسنداً بالرواة من الرجال "وحدثني إبراهيم بن محمد العطار، عن الحسن بن عليل العنزي، قال: حدثنا أبو عدنان السّلمى، قال: أخبرني أبو يوسف الجتّى الأسدي، راوية المفضل عن المفضل، أنّ أبا الغول النهشلي حدّثه، عن أبى الغول الأكبر، قال: لما نزل امرؤ القيس في طيىء تزوّج امرأة منهم يقال لها أمّ جندب، وكان مفرّكا تبغضه النساء إذا وقع عليهن" (المرزباني، ١٩٩٥، صفحة ٤٠) وهذه البداية من الإسناد تشعرنا بصحة الخبر، الذي سيبدأ بتسلسل زمن تتابعي – على حد تعبير المختصين بالسرد – وتكملة الخبر بشكل مستمر "فأتى أمّ جندب من الليل، فقالت له: يا خير الفتيان أصبحت فقم. فقام فإذا الليل كما هو. فرجع إليها، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قالت: لا شيء. قال: لتخبرنّى. قالت: كرهتك، لأنك ثقيل الصّدر، خفيف العجز، سريع الهراقة، بطيء الإفاقة ... قال فلم تزل عنده. فأتاه علقمة بن عبدة، فتذاكرا الشعر عندها؛ فقال هذا: أنا أشعر، وقال هذا: أنا أشعر. فقال له علقمة: قل شعرا وانعت الصيد، وهذه الحكم بيني وبينك– يعنى أم جندب ..." (المرزباني، ١٩٩٥، صفحة ٤٠) إلى آخر الخبر، وهنا تحاول "أم جندب" التخلص من "أمرئ القيس" حين أخبرته بأن الصبح قد أسفر، وما زال الليل مرخياً سدوله، ذلك لأنه غير مرغوب فيه، فلا يحسن حميمية علاقة الفراش، على ما ذكرت من أربع صفات تتعلق بأسلوب الممارسة الجنسية، ومعايير أداء الذكر فيها (الفحل في مصطلح النقاد) بعد أن صرحت بعبارة "كرهتك"، في هذه العلاقة المأزومة، يظهر "علقمة" نداً له، وكأن الرواية توحي بسبب تحيزها، وتعلل زواج "علقمة" بها، في ايحاء بوجود وشائج بين الفحل الشعري والفحل الجنسي، وتوافق الأدوار في توافق الحكم النقدي للمرأة، ومما يحسن الإشارة إليه فيما يوحيه اسم "أم جندب" في كتب اللغة والأمثال من دلالة عند العرب آنذاك "قَوْلهم وَقَعُوا فِي أم جندبٍ؛ إذا وَقَعُوا فِي مَكْرُوه وَاسْتمرّ عَلَيْهِم ظلم وَكَأن أم جندبٍ اسمٌ من أَسمَاء الْإِسَاءَة وَالظُّلم وقريبٌ مِنْهُ" (العسكري، ١٤٣١، صفحة ٢/ ٣٣٤) وهو ما يحتاج إلى تحليل من ذهن نسوي يضع يده على كثير من أساليب الهيمنة الخفية، وكان ينبغي أن تتفحص الباحثة رصداً واعيّا لتحري الذهنية السائدة آنذاك في تصورها لدور المرأة، في حين أهملت الباحثة كل الروايات التي تحكي دور المرأة في الممارسة النقدية، نسمي أهمها بلا تحليل، فالهدف هو بيان ما كان منسيّاً عند الباحثة، وما يحتاج إلى وقفة بذوق وقّاد، وحساسية مرهفة لبنى الثقافة الذكورية المهيمنة في علاقتها بالمرأة، الخفية والظاهرة على السواء، فهذه "أم جحدر بنت حسّان المرية" يرد ذكر موقفها النقدي تابعاً عرضيّا في ترجمة الشاعر "الحكم بن معمر بن قنبر بن جحاش بن سلمة " الذي يهجوها هجاء مُرّاً في الوقت الذي يحفظ التدوين تلك الأبيات، ولا يحفظ ما قالته في شعر "الحكم" ولا في شعر "ابن ميّادة" خصمه، فأهملت القيمة النقدية لـ"أم جحدر" كما يُروى؛ فقد "قال الحكم يهجو أم جحدر بنت حسان المرية وكانت فضلت ابن ميادة عليه، (الحموي، ١٩٩٣، صفحة ٣/ ١١٩٢)

ألا عوقبت في قبرها أم جحدر ولا لقيت إلا الكلاليب والجمرا

كما حادثت عبدا لئيما وخلته من الزاد إلا حشو ريطاته صفرا

فيا ليت شعري هل رأت أمّ جحدر أكشّك أو ذاقت مغابنك القشرا

وهل أبصرت أرساغ أبرد أو رأت قفا أمّ رمّاح إذا ما استقت ذفرا

وبالغمر قد صرّت لقاحا وحادثت عبيدا فسل عن ذاك زبّان والغمرا

ومثل ذلك نقد "عقيلة بنت عقيل بن أبي طالب" (المرزباني، ١٩٩٥، صفحة ٢١١) وغيرها مما ذكرته كتب التراجم، وإن لم تكن هذه الأخبار صحيحة في أصلها، أو في بعض تفاصيلها، إلا أنها تكشف الاتجاه الذكوري المدون الذي أبقى وحفظ ما يريد من إسهامات المرأة، وكيف ترد مواقف المرأة النقدية والشعرية في طيات تراجم الذكور من الشعراء، ولا يحفظ لها شعراً إلا بمقدار ما يحتاجه الخبر في حياة الفحول، وهو ما ينبغي للباحثة النظر به، وتحليل بنيته التي تُخفي بعض التحيزات التي تتطلب حاسة نقدية قد تكون المرأة أولى بكشفها، لأنها معنية بها في المقام الأول.

الخاتمة:

قد يصنف هذا البحث ضمن دراسات "نقد النقد" لأنه قراءة في دراسة نقدية، من ناقدة تناولت إسهامات المرأة الأدبية وتحدياتها، فكان الهدف هو اثبات أن كتابة المرأة لا تفضي بالضرورة إلى حساسية نقدية فعالة في قضايا المرأة، ولا سيما في تحليل تلك النصوص التي تتستر بها التحيزات الذكورية في سياقها التاريخي، فما تحتاج إليه المرأة الباحثة، هو توظيف المناهج النقدية بحرفية عالية، وامتلاك أدوات التحليل التي تكشف ما أُضمر.

كان اختيار القسم الأول من الكتاب، الذي تناول إسهامات المرأة من عصر ما قبل الإسلام إلى عصر النهضة، يشير إلى إمكانية تفحص القدرة النقدية لتحليل الحدث التاريخي، وتصوره بمعطياته المنجزة والمندثرة، من موقع ثقافي معاصر، فالتاريخ أحداث لم تنته تماماً، فهي تواجه قراءات تعيد تشكيلها من جديد مع كل باحث وباحثة، وهنا يتطلب الوعي بالموقع الثقافي ليسير البحث بتأني – على الرغم من اختصارها الكبير للبدايات – واضعاً يده على كثير من المواضع التي وقعت في فخها الباحثة، فقد أغفلت كل إسهامات المرأة عدا الشعرية منها، وهو ما يعدّ ترسيخاً لتاريخ الأدب الذكوري الذي لا يعبأ إلا بالشعر آنذاك، وانحسار مفهوم "الكتابة" بالشعر أيضاً، وإهمال الأخبار النقدية والمنجز السردي لها، مما جعل قراءة العتبات الأولى في تاريخ الأدب الخاص بالمرأة قراءة مبتسرة، وضائعة في التعميم، كما أعاد البحث القيمة الفنية للتحليل النقدي لمجمل الأخبار الشعرية والنقدية، ليكون عملا متمماً لهذا الكتاب القيم، وتصحيح رؤيته في جزء منه.

المصادر

إبراهيم محمد أبو سكين. (١٤٣١). دراسات لغوية في أمهات الكتب (المجلد ١.(

ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري. (٢٠٠٤). خزانة الأدب وغاية الأرب. بيروت: دار ومكتبة الهلال.

ابن سلام الجمحي. (١٤٣١). طبقات فحول الشعراء. (محمود محمد شاكر، المحرر) جدة: دار المدني.

ابن قتيبة. (١٤٢٣). الشعر والشعراء. القاهرة: دار الحديث.

أبو الخطاب عمر بن حسن الأندلسي الشهير بابن دحية الكلبي. (١٩٥٥). المطرب من أشعار أهل المغرب. لبنان – بيروت: دار العلم.

أبو القاسم البلخي. (٢٠٠٠). التراجم والطبقات (المجلد ١). (أبو عمرو الحسيني، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي. (بلا). جمهرة أشعار العرب. (علي محمد البجادي، المحرر) مصر: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

أبو عبيد الله بن محمد المرزباني. (١٩٩٥). الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (المجلد ١). (محمد حسين شمس الدين، المحرر) بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو هلال العسكري. (١٤٣١). جمهرة الأمثال. بيروت: دار الفكر.

أحمد بن محمد بن علي بن ابراهيم الأنصاري الشرواني. (١٣٢٤ هـ). نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن. مصر: مطبعة التقدم العلمية.

أحمد محمد الحوفي. (بلا). المرأة في الشعر الجاهلي (المجلد ٢). القاهرة: دار الفكر العربي.

إشراف وتحرير: علي عبود المحمداوي. (٢٠١٣). الفلسفة والنسوية (المجلد ١). الجزائر: منشورات الإختلاف.

إعداد وترجمة: محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي. (٢٠٠٥). اللغة، نصوص مختارة (المجلد ٤). المغرب: دار توبقال.

بام موريس. (٢٠٠٢). الأدب والنسوية (المجلد ١). (سهام عبد السلام، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

بيار بورديو. (٢٠٠٩). الهيمنة الذكورية (المجلد ١). (سلمان قعفراني، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

خالدة سعيد، ماري نصر، زهير حطب. (نيسان، ١٩٧٥). حول مسألة المرأة، جوهرها، مظاهرها، أسبابها. الطريق.

رشيدة بنمسعود. (٢٠٠٢). المرأة والكتابة؛ سؤال الخصوصية/ بلاغة الإبداع. (المجلد ٢). المغرب: أفريقيا الشرق.

زينب بنت علي بن حسين العاملي. (١٣١٢هـ). الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (المجلد ١). مصر: المطبعة الكبرى الأميرية.

سارة جامبل. (٢٠٠٢). النسوية وما بعد النسوية (المجلد ١). (أحمد الشامي، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

ستانلي هايمن. (١٩٦٠). النقد الأدبي ومدارسه الحديثة (المجلد ١). بيروت: دار الثقافة.

شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني. (١٩٩٧). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (المجلد ١). بيروت – لبنان: دار صادر.

شهاب الدين الرومي الحموي. (١٩٩٣). معجم الأدباء (المجلد ١). (إحسان عباس، المحرر) بيروت: دار الغرب الإسلامي.

شوقي ضيف. (بلا تاريخ). الفن ومذاهبه في النثر العربي (المجلد ١). مصر: دار المعارف.

طوني بينيت – لورانس غروسبيرغ. (٢٠١٠). مفاتيح اصطلاحية جديدة، معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع. (سعيد الغانمي، المترجمون) بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي. (١٤٣١هـ). نزهة الجلساء في أشعار النساء. مكتبة القرآن.

عبد الكبير الخطيبي. (١٩٧١). الرواية المغربية. (محمد برادة، المترجمون) الرباط: المركز العلمي للبحث الجامعي.

عبد الله الغذامي. (٢٠٠٦). المرأة واللغة (المجلد ٣). الدار البيضاء: المركز القومي العربي.

غيردا ليرنر. (٢٠٠٧). نشأة النظام الأبوي. (أسامة إسبر، المترجمون) بيروت: المنظمة العربية لترجمة.

فدوى طوقان. (١٩٨٥). رحلة جبلية رحلة صعبة، سيرة ذاتية (المجلد ٢). عمان، الأردن: دار الشروق للنشر والتوزيع.

ميجان الرويلي، سعد البازغي. (٢٠٠٢). دليل الناقد الأدبي (المجلد ٣). المغرب: الدار البيضاء.

يوسف اليوسف. (١٩٨٣). مقالات في الشعر الجاهلي. بيروت: دار الحقائق.